



فلسفة اللباس التقليدي المغربي:

قراءة في النسق الثقافي

الطالبة الباحثة سناء جباح

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق الدار البيضاء

المغرب

مقدمة

تكمّن أهمية الملابس في كونها مرجعية ثقافية متعددة، تتجاوز وظيفتها الرئيسية لتتحول إلى وسيلة ثقافية، يقف عندها عالم الدين وعالم الاجتماع، فيقفون على أدق جزئياتها: نسيجها ولونها وشكلها، بشكل يوفر رؤية عميقة لروح العصر والتقاليد السائدة، فاللباس مرآة لأحوال المجتمع وأوضاعه ولم يكن إنتاجه عملا عفويا وتلقائيا فحسب، إنما كان يخضع لرؤية فنية نابعة من الخصوصية الثقافية والحضارية. "فالملابس هي المصدر والمنشأ لفضيلة الحياء ذلك الهيكل الظليل المحجب، الذي يضم بين جوانحه كل مقدس من الإنسان والملابس هي التي جعلت لنا شخصيات مستقلة ومميزات تفاضل بها وسياسة نجري عليها"¹ ويمكن القول بأن الملابس هي التي تجعل من الإنسان إنسانا ذو شخصية بارزة في المجتمع.

ولدراسة الألبسة فوائد كثيرة منها: أنها تلقي الضوء على مستوى الحضارات وخصائصها وتطوراتها، فتستطيع أن تعرف منها تأريخ النقوش والشعوب التي تعود إليها، ومدى عزلة هذه الشعوب التي تعود إليها أو اتصالاتها ومدى محافظتها أو قبولها للتجديد.

ومن الحضارات التي تُعرف بموروثها الثقافي العريق على مر العصور، حضارة المغرب، هذا البلد الذي يتميز بتنوع عاداته وتقاليد، في كل منطقة من مناطقه، واستطاع بثقافته أن يجذب السياح من كل أنحاء العالم، فهو محور دراستنا في هذه الورقة التي سنتوقف فيها عند فلسفة اللباس المغربي التقليدي.

❖ مفهوم الثقافة والتقاليد المغربية

مفهوم الثقافة:

تعتبر الثقافة من بين الألفاظ المعنوية التي من الصعب تحديدها فهي مصطلح حديث يحمل في طياته أبعاد كبيرة ودلالات متعددة، كما أنه من المصطلحات التي كثر حولها النزاع من حيث أصول نشأته.

إن الثقافة من الإشكاليات الأكثر تعقيدا في هذا الوجود، فهي مفهوم عصي على التحديد والتأطير. فالثقافة كانت ولا زالت هدفا لكثير من الدراسات من تخصصات مختلفة، كالأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلوم الفلسفة وغيرها من العلوم التي تسعى إلى مقارنة الظاهرة الثقافية ودراستها، وإن كان كل علم ينظر إليها من زاوية تخصصه.

يعود أصل مصطلح الثقافة في المعاجم العربية إلى الفعل الثلاثي "ثقف" التي تعني الاعوجاج فيقال الثاء والقاف والفاء كلمة واحدة إليها ترجع كل تلك الفروع، فالثقافة تحمل العديد من المعاني من بينها قولهم "ثقفت الفتاة إذا أقمّت عوجها، وثقفت بالثفيل أقمّت المعوج منه"² إلى غيرها من التعاريف اللغوية.

استخدم العرب في العصور الإسلامية الأولى مصطلح الثقافة بمفهومها اللغوي ولم يلتفتوا إلى المعنى الاصطلاحي مثل ما وردت في كتاب طبقات فحول الشعراء "وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات، منها ما تتقنه العين، ومنها ما تتقنه الأذن، ومنها ما تتقنه اليد، ومنها ما يتقنه اللسان"³ فالمقصود بالثقافة هنا هو الحدق والفهم وهي أقرب المعاني لها.



وفيما يلي آراء بعض العلماء في تعريف الثقافة:

تايلور:

يرى أن الثقافة تعبير عن شمولية الحياة الاجتماعية للإنسان وتتميز ببعدها الاجتماعي، بقوله " الثقافة هي الكل المتكامل الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاقيات والقوانين والأعراف والقدرات الأخرى، وعادات الإنسان المكتسبة، بوصفه عضوا في المجتمع"⁴

حسين الصديق:

يرى أن الثقافة هي مصدر كل القيم والأفعال التي تصدر عن الأفراد المنتمين إلى ذلك المجتمع بقوله " الثقافة هي مجموع المعطيات التي تميل إلى الظهور بشكل منظم فيما بينها مشكلة مجموعة من الأنساق المعرفية الاجتماعية المتعددة، التي تنظم حياة الأفراد ضمن جماعة تشترك فيما بينها في الزمان والمكان. فالثقافة ما هي إلا التمثيل الفكري للمجتمع، والذي ينطلق منه العقل الإنساني في تطوير عمله وخلق إبداعاته، فهي بهذا المعنى تختلط بالمجتمع فلا يمكن التفريق بينهما إلا في مستوى التمثيل، فهي بالتالي تحدد هوية المجتمع في كافة أبعاده المادية والمعنوية"⁵

مالك بن نبي:

يقول: أن الثقافة هي مجموعة من الصفات الخلقية، والقيم الاجتماعية، التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه"⁶ من خلال هذه الآراء التي تم ذكرها تبين لنا أن مفهوم الثقافة هو مفهوم زئبقي، فلكل مجتمع ثقافته الخاصة التي تختلف عن ثقافات المجتمعات الأخرى، وقد يوجد في المجتمع الواحد ثقافات متعددة، مثل المغرب الذي يزخر بتنوع ثقافي هائل، مثلا في اللباس التقليدي المغربي نجد اللباس الأمازيغي والصحراوي واللباس الفاسي إلى غير ذلك، وكل نوع من هذه الألبسة له مميزاته ودلالاته الثقافية.

الثقافة المغربية

عندما يتم الحديث عن الثقافة المغربية فهو حديث عن ثقافة بلد متعدد الأبعاد والروافد من مختلف الشعوب، فهو يتميز بتعددته الثقافي والعربي، ويتسم " بتفرد جغرافي يعد نتاجا لالتقاء مؤثرات شتى-تراكمت عبر العصور - ولتداخل عدة أبعاد قارية وبحرية، ونظرا لوجوده في القسم الشمالي الغربي من إفريقيا، " ⁷ هذا الموقع الذي يحتله المغرب أسهم في التنوع الطبيعي والزخم الثقافي الذي تتمتع به البلاد، حيث "يكنم تفرد البلاد بالنسبة لمحيطها الجهوي في سعة رفعتها على مستوى خطوط العرض وشدة ارتفاع جبالها. فالتراب المغربي يمتد من مدار السرطان بالصحراء حتى مضيق جبل طارق عند تماس البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي. وهكذا فهو ينتمي إلى القاعدة الإفريقية بشساعة صحاريها، كما ينتمي إلى القاعدة الأوربية. ومن هنا أتى تنوع مناخه المتميز بخصائص النطاق الواقع بين المدار والبحر الأبيض المتوسط." ⁸ وبهذا الموقع الاستراتيجي فقد استطاع المغرب أن يكون صلة وصل بين مختلف الدول ومركزا للمبادلات التجارية. وكان مصدر إلهام لكل زائر بتنوع الصناعات والحرف التي انتعشت «بالمدينة المغربية في العصر الوسيط كالصناعات المعدنية والصناعات النسيجية واللباغية وصناعة الخشب والخزف. ففيما يخص الصناعات المعدنية يأتي النحاس في مقدمة المعادن التي استخدمت فيها نظرا لتوفر المادة الأولية بمناجم الجنوب المغربي بالأطلس الصغير وصاغرو وأوكنات والمعيدر وتافيلالت. وشملت الصناعات النحاسية الأواني كالصواني والبرم والطناجير والقضبان والسبائك والحلي والفلوس. واشتهرت مدن إيكلي وفاس وأغمات ومراكش بجودة مصنوعاتهما من النحاس الأحمر أو الملون. . . كما برع المغاربة من جهة أخرى في صياغة الذهب. . . " ⁹ إلى غيرها من المواد التي كان المغاربة يصنعونها، فهذه الحرف أو ما يسمى بالصناعات اليدوية هي جزء لا يتجزأ من التراث المغربي الأصيل، الذي يعكس ثقافته العريقة.



وعُرف المغرب أيضاً بتنوع منسوجاته المختلفة من حيث الشكل والمصدر، في كل مناطقه مثل: سجلماسة التي عرفت بصناعة نوع من الثياب الصوفية والأزر الرفيعة. . . بالإضافة إلى منطقة سوس التي عرفت بصناعة أكسية رفاق وثياب رفيعة، ونول لمطة التي عرفت بصناعة الأكسية والبرانس¹⁰ حيث يرجع ذلك إلى " وفرة المواد ببلاد المغرب وفي مقدمتها الصوف والوبر والكتان والقطن، والمواد الصباغية كالنيلة والحناء والفوة"¹¹ فهذه المواد هي عبارة عن "مادة خام" يستعملها المغاربة في مختلف الصناعات اليدوية التي تعبر عن هويتهم الثقافية والحضارية.

إن المغرب " بلد متعدّد الأعراق والإثنيات، وهو يزخر بثقافة متنوّعة، وحضارة ثريّة. تمتدّ جذورها فيعمق تاريخه الطويل، بالإضافة إلى سكّانه الأصليين من الأمازيغ، فقد توافدت عليه العديد من الهجرات المتوالية القادمة من المشرق، ومن جنوب صحراء إفريقيا، ومن الشمال. وكان لكلّ هذه المجموعات والفئات البشرية أثر كبير على التركيبة الاجتماعية للمغرب التي عرفت معتقدات سماوية منذ أقدم العهود، كاليهودية والمسيحية والإسلامية. ولكل منطقة من المناطق المغربية خصوصياتها التي تميّز بها عن سواها من المناطق الأخرى، التي أسهمت في صنع فسيفساء الثقافة المغربية، ووضع الإطار المتميّز والمتنوّع للإرث الحضاري المغربي الذي أصبح ذا طابع معروف في العالم أجمع. "¹² وما يمكن استخلاصه من هذا القول هو أن المغرب ذو حضارة غنية متنوّعة ناتجة عن تمازج مجموعة من الحضارات كالفينيقية واليهودية والعربية وغيرهم، إذ أسهمت كل واحدة بالتأثير على الحضارة المغربية، وهذا ما يفسر الزخم الثقافي في المغرب.

فالثقافة هي التي تميز المغرب عن غيره من الشعوب، فلكل شعب هويته الخاصة التي تميزه وهي مرجعه الأساس، وهذه الثقافة تتضمن العديد من الحثيات منها ما هو متعلق بموقعه الجغرافي أو ما هو متعلق بسكانه الذين يتمسكون بموروثهم الثقافي المتنوع ،

❖ فلسفة اللباس التقليدي

فلسفة اللباس

ظهر اللباس منذ وجود الإنسان على الأرض وتطور بتطوره على مر العصور، فهو حاجة بيولوجية وحياتية إلى جانب الأكل والشرب، فإذا كانت هذه الحاجيات تزود الإنسان بالطاقة والحيوية وتمكنه من القيام بمختلف أنشطته فإن اللباس يوفر للإنسان الحماية اللازمة وبقية من البرد والحرارة ومختلف التقلبات الجوية، إلى جانب أنه يستر عورة الإنسان، لذلك حظي اللباس بالعناية اللازمة والاهتمام الواسع.

ودليل وجود اللباس منذ أن خلق الله آدم قوله تعالى "إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى"¹³ فحينما خلق الله آدم وحواء أدخلهما الجنة ورزقهما من نعمته، كالمأكول والمشرب وكسأهم من العري ونجأهم من الظمأ والحر، إلا أن الشيطان قد وسوس لهما أن يأكلا من شجرة قد حرمت عليهم، يقول عز وجل في سورة الأعراف "فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْنَهُمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ"¹⁴ فهذا دليل على حاجة الإنسان للباس منذ القديم ويظهر ذلك في أنه حينما أكل آدم عليه السلام من تلك الشجرة ظهرت سوءاتهما فأحس بالتعري حيث لجأ إلى أوراق التين أو التوت لأجل التستر.

كان الناس في القديم يصنعون اللباس من أوراق التين فيقومون بلفها حول الجسم، ومع مرور الوقت اكتشفوا موادا لصنع الملابس فتطورت مع مرور الزمن وصار اللباس على ما هو عليه اليوم.

لم يقتصر دور الألبسة فقط على السترة والحماية بل تطورت مع مرور الوقت لتصبح من بين وسائل الزينة والتباهي بين مختلف الشرائح المجتمعية، يقول كاريل ف"الملابس التي نشأت بادئ ذي بدء عن حماقة الشغف بالزينة أي المبالغ لم تبلغها وأي الغايات لم تدركها! لسرعان ما استفاد الإنسان منها مزيد الوقاية ولذيذ الدفء والحرارة. . . فالملابس هي المصدر والمنشأ لفضيلة الحياء، ذلك الهيكل الضليل. . .



والملابس هي التي جعلت لنا شخصيات مستقلة ومميزات تفاضل بها وسياسة نجري عليها¹⁵ إلى جانب أنها كانت من وسائل الزينة والتجمل فهي أيضا عبارة عن انعكاس للثقافات والمعتقدات الخاصة بكل شعب "قل لي ماذا تلبس أقل لك من أنت، هذا القول الذي ينطبق على الماضي أكثر مما ينطبق على الحاضر، له دلالة خاصة. . . واكب اللباس المراحل التاريخية التي مرت بها شعوب العالم كافة، وهذا ما دفع الغربيين إلى اعتماد فكرة إنشاء متاحف للباس، لما فيه من عبر تاريخية واجتماعية واقتصادية، حيث يمكننا أن نقرأ التاريخ الاجتماعي - الاقتصادي لأي شعب من خلال تحليل مكونات زيه التقليدي والمواد الأولية التي كان يستخدمها في صناعة هذا الزي ومصادر هذه المواد الأولية"¹⁶، فالإنسان لا داعي إلى أن يتكلم أو لأن يعرف عن نفسه وثقافته، فهي واضحة جلية من خلال ما يرتديه لان الاختيار في الملابس لا يكون اعتباطيا ففي عالم اللباس أو الأزياء كل شيء له تفسير انطلاقا من القصة والألوان.

يقول كاريل "كما وضع مونتسكيه كتاب عن روح الشرائع أضع أنا كتابا عن روح الملابس، فإن الانسان لا يجري مع الصدفة العمياء لا في سن الشرائع ولا في خياطة الملابس، بل لا تزال اليد العاملة مهتدية بنور العقل تنقاد بزمامه وتدعن لأحكامه، وإنك لتجد فكرة فنية كامنة في كل ما يبتكر من ملابس على اختلافها وفي كل ما يبذل من المساعي في سبيلها، وما جسم المرء وملابسه إلا البقعة التي عليها والمواد التي بها يشاد ذلك الهيكل الرائع الفخم؛ شخص الإنسان"¹⁷، فهو يؤكد على حرفية الانسان في صنع الملابس وحرصه على تطويرها وأن تلك الأنواع التي يصنعها سواء أكانت طويلة أم قصيرة أم مزخرفة لا تأتي من فراغ بل هي انعكاس لمجموعة من الأفكار، التي وجب أن تتوقف عليها، فصانع الملابس "ما من حركة من حركات المقص إلا وهي منظمة مدبرة بمؤثرات دائبة عاملة ليست بالخفية ولا بالمبهمة لذوي البصائر الجلية والأفهام النافذة"¹⁸، فصناعة الملابس هي إبداع وفن يجسد لنا أفكارا ومضامين لا يصل لها إلا الشخص الحاذق وصاحب البصيرة الثاقبة.

وقال أيضا كاريل "ثم تأمل أي معان جلييلة تنطوي عليها ألوان الملابس فمن الأسود القاتم إلى الأحمر الوهاج أي خصائص روحانية وصفات نفسانية يكشفها لك اختيار الألوان فإذا كان التفصيل ينيك عن طبيعة الذهن والقريحة فإن اللون ليخبرك عن طبيعة القلب والمزاج"¹⁹ فبهذا إذا كانت طبيعة اللباس التي يرتديها الشخص تعكس خلفيته التاريخية وبقعته الجغرافية، فإن للألوان دلالة تكمن في أنها تعكس نفسية صاحبها ومزاجه، ولعلمهم بالدور الذي تلعبه الألوان ذهب العديد من الدارسين لتفسيرها وتقديم معان كل لون على حدى، وهذه الأمور هي التي تدخل ضمن مجال دراسة العلامة أو الإشارة الذي يهتم به علم حديث وهو السيميائيات، وبهذا فلكل علامة معنى معين فقد تدل على ثقافة أو مجتمع وقد لاتدل على شيء، فكل مجتمع يطرح مجموعة من العلامات التي تتعلق بحياته العامة.

"لقد صارت الملابس تستعمل لإبراز معالم الجمال والريادة الجاذبية والفتنة وقوة التأثير في الآخرين كما استخدمت في بعض المجتمعات للدلالة على المراكز الاجتماعية للأفراد حيث تميزت كل طبقة بألبسة خاصة بها من حيث موادها وألوانها وطريقة خياطتها ولبسها، ولا نبالغ إذا قلنا أن الألبسة من أهم مظاهر الحضارة المادية ومن أحسن الدلالات على مستوى المجتمع وأحواله وأوضاعه"²⁰، كما يعتبر اللباس من الوسائل التي تستطيع اختراق مختلف الثقافات المجتمعية وغزوها.

لقد عرف اللباس عبر مختلف العصور العديدين من التعديلات وطرات عليه تغييرات جعلته يتماشى مع تطورات العصر، فانتقل بذلك من لباس بدائي الى لباس متطور يصنع من خلال أدوات ومواد جد متطورة.

و في كتاب اللباس والزينة في الشريعة الإسلامية قوله لدكتور المودودي يبرز فيها أهم العوامل التي ساهمت في تطور اللباس وحصرها في ثمانية عناوين وهي كالآتي:

- 1) "الظروف الجغرافية: التي تجبر سكان منطقة خاصة من مناطق الأرض على اختيار نوع خاص من اللباس، وأسلوب المعيشة.
- 2) الأفكار الخلقية، والدينية: التي لأجل اختلافها يكون لباس النساء في كل أمة مختلفا عن لباس الرجال



- (3) الذوق الفطري: الذي ينمو في كل أمة على طرق متباينة، ويكون من نتائج ذلك، اختلاف مقاييس الاختيار باختلاف الأمم، فمقياس الاختيار عند أمة يختلف عن اختيار أمة أخرى
- (4) أسلوب المعيشة: الذي ينمو، ويترقى في كل أمة بصورة معينة، تتلاءم مع ما لتلك الأمة من ظروف جغرافية ومدنية واقتصادية، وفكرية، ومعنوية، ولذا فإن كل أمة لا تختار من اللباس بطبيعة الحال إلا ما يناسب أسلوبها العام للحياة الاجتماعية
- (5) الوضع الاقتصادي : وهو عبارة عما لكل أمة من وسائل المعيشة العامة والمهن. . . فلا يكون لباس كل أمة إلا منسجما مع ظروفها هذه، ومع تغيرها يتغير لباسها بحكم الفطرة.
- (6) الحضارة: التي تكون كل أمة في بائها على مستوى معين، وتمتاز بها عن غيرها، ويجعل لباسها المسائر لمعايير هذه الحضارة يختلف عن لباس غيرها
- (7) التقاليد القومية: التي بموجبها يرث كل جيل جديد عن أسلافه نوعا خاصا من أسلوب المعيشة وصورة خاصة للباس، ثم يتركها للجيل القادم مع إدخاله عليها شيئا من التعديل. وهذا تسلسل كيانها القومي، ولذا فإنه عزيز لدى كل أمة.
- (8) المؤثرات الخارجية: التي تنطبع بها أفكار كل أمة وأسلوبها للحياة بحكم احتكاكها مع الأمم الأخرى إما إلى أي حد وبأي وجه تتأثر هذه الأمة بالأمم الأخرى²¹ فتكون بذلك هذه هي أهم الأمور التي كانت نتيجة تطور اللباس على مر العصور والارتقاء به ليساير مختلف تطورات المجتمع.

ونحنم مبحثنا هذا بقولة لكاريل في كتابه فلسفة اللباس أثناء حديثه وبشكل صريح عن فلسفتها وحاول توضيحها من وجهة نظر منطقية بقوله "خطرت ببالي مسألة اللباس لأول مرة فأدهشتني تلك الحقيقة القائمة وهي وجود الخياطين والملابس عجبا والله ! هذا الجواد الذي أمتطيه قد كفته الطبيعة مؤونة اللباس، وأعدت له كسوة من الجلد والشعر، فلو أتي جردته من سرجه ولجامه وحزامه، لبقى الحيوان النبيل مكثفيا بداته قد هيأت له الطبيعة من نفسه غزالا ونسادا وخياطا، بل أعدت له كذلك حذاء وصائغا ووشاء، فهو يجمع ويمرح في بطون الوديان، وعليه من اهايه كسوة خالدة، لا تلوحها أشعة شمس، ولا يؤثر فيها وابل مزن، بل لا ينقصها ما يزينها من محاسن الوشى، فهي تروق العين بالغرر والأوضاع والشيات والدارات والخمل والهداب والألوان والأصبغ المونقة، فيالله كل ذلك وأنا قد تلففت في جزر الأغنام وألحية النباتات وأمعاء الديدان وجلود الثيران وفراء دوات الفرو من الحيوان، وعلى هذه الهبة أخرج إلى الملاء فما أنا إلا مشجب متحرك قد كُوم عليه ركام من الأسمال انتشلت من مقبرة الطبيعة حيث البلى قائم لها بالمرصاد وروكمت على جسدي كي تبلى علي بسرعة أقل وفي زمن أطول²² وطول كلام كاريل حول مسألة اللباس بين طرح أسئلة ومحاولة الإجابة عليها إجابة منطقية واقعية، ففي سياق الكلام الذي تم ذكره قد توقف على العناصر التي يصنع منها لباس الإنسان وهي جزر الأغنام وألحية النباتات وأمعاء الديدان وجلود الثيران وفروة من الحيوان وغيرها من العناصر.

وبهذا فإن "اللباس" لا يقتصر دوره فقط على ستر الإنسان وحمايته من البرد والحرارة، بل إن له خلفيات ويحمل في ثناياه أفكارا ومعتقدات؛ يظهر ذلك جليا في اختلاف زي كل بلد عن الآخر فلنكل واحد زي خاص به يعكس معتقاداته وثقافته.

وقد نجد داخل البلد الواحد ألبسة مختلفة، والتي يستطعون من خلالها التمييز بين الأسياد وعامة الناس، إذ كانوا في القديم يصنعون اللباس لمختلف الشرائح الاجتماعية، فلباس الملوك ليس هو لباس عامة الناس.

اللباس التقليدي

يتميز بلد المغرب بتنوع سكانه، فهو مزيج من الأمازيغ والعرب، الشيء الذي أنتج هذا التنوع الثقافي في التراث المغربي.



و اللباس التقليدي هو أحد مرتكزات الحضارة المغربية، لأنه يعكس تميزه و درجة وعيه وتطوره عبر مختلف العصور ومدى مجاراته ومواكبته لتطورات العصر، وأيضا مدى حفاظه على موروثه الثقافي وخصوصياته.

"اللباس التقليدي المغربي هو مجموع الألبسة التراثية والشعبية التي حافظ ومازال يحافظ عليها المغاربة منذ قرون حيث يظهر جليا تشبههم بمختلف الألبسة التقليدية خاصة في الأعراس و المناسبات الدينية، شيوخا كانوا أم شبابا، ذكورا أم إناثا. ومما لاشك فيه أن الزي التقليدي جزء لا يتجزأ من التراث، والتراث واحد من المقومات اللازمة لتشييد الحضارة، فهو ضروري لتطور الحضارة، ويعتبر المغاربة بالقفطان كأحد رموز الثقافة الشعبية المنتشرة بأصالتها، ومهما تعددت أنواع الأثواب وجودتها تبقى للتكشيطه خاصيتها التي لا محيد عنها وهي مفخرة النساء من جميع الطبقات. حيث تجد أن المغربيات ما زلن يفضلن اللجوء إلى الخياط عوض التصميمات الحديثة." ²³

فهذا الزي كان ولا يزال إحدى الألبسة الرئيسية للمغربيات في مختلف المناسبات والذي تطور مع الزمن، وأصبح يتخذ أشكالا وألوانا متعددة، تختلف أنواعه باختلاف الأذواق، إلا أنه يحافظ على مكانته لدى كل المغربيات من مختلف الطبقات الاجتماعية.

- تطور اللباس التقليدي من الحايك إلى الجلابية:

لقد سيطر الحايك سنين طويلة على مظهر المرأة المغربية، بكل ما يحمله من قيم ثقافية محلية، وذكره مارمول في كتابه "وصف إفريقيا" في معرض حديثه عن بربر ولاية حيحة أشد ولايات مملكة مراكش: إن النساء يرتدين نوعا من الإزار وهذا الرداء اسمه حايك، وهو مصنوع على هيئة ملاحف غرناطة، ولكنه محروم من نعومتها، وفي موضع آخر يقول واصفا مكناس: والنساء يتجولن ملفوفات لفا تاما ببعض الأزرق البيض الفضفاضة بإفراط، المصنوعة من الصوف والمسماة بالحايك بحيث لا يستطيع أحد رؤية وجه إحدى النساء" ²⁴ ولأن اللباس مظهر من مظاهر التغيير الاجتماعي فتغير لباس المرأة المغربية راجع إلى تغير مكانتها ودورها الاجتماعي، من ربة بيت فقط إلى طالبة وعاملة وفاعلة في المجتمع، ما يجعل التعليم أول وأهم عامل في تغير مكانة المرأة المغربية والذي أدى إلى خروجها للعمل وما له من أثر واضح على طريقة لباسها.

ففي خمسينات القرن الماضي شهد الحايك منافسة شرسة من قبل الجلابية التي أصبحت موضة نسوية في بعض المدن المغربية، بعدما كانت حكرا على الرجال، فأدخلت عليها تحسينات زادت من أناقتها وأنوحتها كإضافة أزرار تجميلية أمامية وتعليق الكتفين محاكاة للأزياء النسوية الحديثة. ومن التبريرات التي جعلت المرأة تفضل الجلابية على الحايك كونها أنيقة وعملية، وأسهمت الجلابية ذات الكمين في تحرير يدي المرأة اللتين كانتا حبيستين داخل الحايك، الذي أصبح عائقا أمام تنقل المرأة في مجال حضري متغير يتضمن الذهاب إلى المدرسة والتسوق وركوب الحافلة.

استطاعت المرأة المغربية أن تفرض الجلابية والتشبهت بها رغم مقاومة بعض المحافظين والسلطات المحلية التي اعتبرت ارتداء الجلابية خروجاً عن التقاليد وانتهاكا للهوية المغربية وأكثر من هذا فقد ذهب باشا مدينة فاس إلى حد معاقبة النساء اللواتي تمادين في لبس الجلابية، وأثناء نفي محمد الخامس وتصعيد المقاومة ضد الاستعمار، حاول بعض الوطنيين من دون جدوى إرجاع النساء إلى الحايك، وفق منظور قومي، وجب على المرأة لبسه كي تعبر عن هويتها المغربية" ²⁵ إلا أن الحايك لم يصمد أمام الجلابية وأمام التغيرات السريعة للعصر، فتزامنا مع ولوج أول امرأتين البرلمان، كان من الطقوس السياسية أن ترتدي الزي الوطني النسوي وهو عبارة عن جلابية بيضاء ووشاح أبيض لا يغطي الرأس، فتم تبني الجلابية كلباس رسمي في المغرب مع الابتكارات التي صاحبته من دون الخروج عن الأطار التقليدي.

إن المرأة المغربية لا تجري مع الصدفية العمياء في خياطة الملابس واختيارها، فهي عندما اختارت ترك الحايك فهو تعبير عن رغبتها في التحرر واتبث الذات، مع مراعاة القيم المرتبطة بالحشمة والستره، فأصبحت الجلابية رمزا للمرأة المغربية العصرية المثقفة.



– السلهم المغربي:

ولكي لا تقتصر في هذه الورقة على لباس المرأة المغربية فقط، قررنا أن نتحدث عن السلهم الخاص بالرجل المغربي أيضاً والكشف عن ما يحمله من دلالات ثقافية.

السَّلْهَامُ " هو لباس تقليدي مغربي يُشبه قليلاً الجلابة المغربية. سماه الأندلسيون البرنص أو البرنوص واستعملوه في السفر.


يُعدّ السلهم من الأزياء القديمة في المغرب وهو يُقابل البشت في دول الشرق. ويُصنع من مواد مختلفة مثل القطن والحرير أما بالنسبة للذين يقطنون في جبال الأطلس فهو يُصنع من صوف الأغنام أو جلد الماعز بسبب البرد هناك.

أما فيما يخص لون السلهم فهو عادةً ما يتخذ اللون الأحمر بدرجاته، والأسود الفاحم أو لون شعر الضأن والإبل.

يُعتبر السلهم في الحواضر والبوادي من علامات الجاه والرفعة حيثُ يكثر استخدامه من قبل «حاكم القرية» أو القاضي أو حتى شيخ المسجد؛ فضلاً عن ارتدائه من قبل «ناس عاديين» نظراً لسهولة لبسه. كما يلبسه الرجل ليلة زفافه مما يكسبه العزة والرفعة بين الحضور.

ولكل لون من ألوان السلهم له دلالة معينة فمثلاً السلهم باللون الأبيض مع جلابة مغربية بيضاء أيضاً أو بيضاء مُحطّطة بالأصفر هو لباس رسمي وفلكلوري للقصر الملكي وهو لباس رجال الدولة خلال الاحتفالات الملكية والأعياد الوطنية. وكان سلاطين المغرب العلويين ورجال المخزن قد اشتهروا قديماً بارتداء السلهم مع الجلاب. ²⁶ فوضع السلهم فوق الجلابة كان ولازال لباس تقليدي رسمي لدى المغاربة في المناسبات والأعياد الوطنية واللقاءات الملكية.

والملابس لا تختار اعتباطياً فلكل نوع دلالاته الثقافية، سواء الجلابة أو السلهم يعبران عن موروث ثقافي حمال لمجموعة من الدلالات، أولها التعبير عن الهوية المغربية الأصيلة.

بعض الصور اللباس التقليدي المغربي: 









خاتمة:

حاولنا في هذه الورقة الوقوف على إحدى مظاهر الثقافة المغربية والتي تتمثل في لباسه التقليدي، فاللباس هو صورة المجتمع ومرآته التي تعكس تقدمه وتطوره، هذا العنصر الذي وجدنا أنه متنوع بتنوع عادات وتقاليد المناطق المغربية. ، ففي هذه الدراسة أول شيء استوقفنا هو ندرة الدراسات في أهمية اللباس المغربي و دلالاته ناهيك عن بعض الكتب التي وقفت وقفات قصيره عليه.

ومما توصلنا اليه في العرض هو ان للملابس لغة صامته تتعدد رموزها بين الألوان والقصات التي تفصح عن شخصية صاحبها.

وتوقفنا عند بعض الألبسة التقليدية المغربية مثل "التكشيطة" التي لازال مكانها محفوظا في المناسبات المغربية، والحايك الذي كانت ترتديه النساء في القديم ومع مرور الوقت تم استبداله بالجلابة نظرا للعديد من العوامل من بينها : تعليم المرأة و خروجها الى العمل، والسلمهام الذي كان ولا زال اللباس المفضل عند الرجال لأنه يدل على "نخوة" الرجل المغربي.

الهوامش:

- ¹ فلسفة الملابس، تومي كاريل، ترجمة طه السباعي، ص 57
- ² معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، مادة (ثقف)
- ³ ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ص2 نسخة الكترونية
- ⁴ زيودينسارداروبورين فان لون، الدراسات الثقافية، ترجمة وفاء عبد القادر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003، ص8
- ⁵ حسين الصديقي، الانسان والسلطة، اتحاد التاب العرب، دمشق، 2001، ص:17، 18
- ⁶ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر بيروت ودمشق، 2000، ص:74
- ⁷ تاريخ المغرب تحيين وتركيب، اشراف وتقديم محمد القبلي، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الطبعة الأولى الرباط 2011، ص 5
- ⁸ تاريخ المغرب تحيين وتركيب، اشراف وتقديم محمد القبلي، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الطبعة الأولى الرباط 2011، ص 5
- ⁹ تاريخ المغرب تحيين وتركيب، اشراف وتقديم محمد القبلي، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الطبعة الأولى الرباط 2011، ص 236، بتصرف
- ¹⁰ تاريخ المغرب تحيين وتركيب، اشراف وتقديم محمد القبلي، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الطبعة الأولى الرباط 2011، ص 236، بتصرف
- ¹¹ تاريخ المغرب تحيين وتركيب، اشراف وتقديم محمد القبلي، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الطبعة الأولى الرباط 2011، ص 237
- ¹² موقع نون TV الثقافة المغربية الأصيلة ودور المفاهيم المستوردة في التأثير على الفرد والمجتمع، بتاريخ 2020/04/12
- ¹³ القرآن الكريم، سورة طه، الآية 118/119
- ¹⁴ القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية 22
- ¹⁵ كتاب فلسفة الملابس، تأليف تومي كاريل، ترجمة طه السباعي، مكتبة الاسكندرية، ص 38
- ¹⁶ اللباس بين الماضي والحاضر، فريدريك معتوق، ص 1
- ¹⁷ كتاب فلسفة الملابس، تأليف تومي كاريل، ترجمة طه السباعي، مكتبة الاسكندرية، ص35
- ¹⁸ كتاب فلسفة الملابس، تأليف تومي كاريل، ترجمة طه السباعي، مكتبة الإسكندرية، ص 36
- ¹⁹ كتاب فلسفة الملابس، تأليف تومي كاريل، ترجمة طه السباعي، مكتبة الإسكندرية، ص35
- ²⁰ الملابس العربية وتطورها في العهود الإسلامية، صبيحة رشيد رشدي، الطبعة الأولى 1400هـ/ 1980م/ المقدمة، ص3
- ²¹ كتاب اللباس والزينة في الشريعة، تأليف محمد عدل العزيز عمرو، الطبعة الثانية 1405هـ/ 1985م، ص 29
- ²² كتاب فلسفة الملابس، تأليف تومي كاريل، ترجمة طه السباعي، مكتبة الإسكندرية، ص38
- ²³ اللباس التقليدي المغربي، موقع وكيبيديا موسوعة حرة بتاريخ 2020/04/14
- ²⁴ رينهاردتوزي المستشرق الهولندي، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ط1، الدار العربية للموسوعات، ص130
- ²⁵ حسن رشيق اللباس والتدين، المعرفة المشتركة في حياة الناس اليومية، عمران، العدد 2
- ²⁶ وكيبيديا الموسوعة الحرة، السلمهام المغربي، بتاريخ 2020/04/12